يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

الأنفال ٨ / ٢٤

# التفسير المنير

## في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

**المجلد التاسع**

**الجزءان ١٧ - ١٨**

دار الفكر

أفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم

# التفسير المنير

## في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

# سورة المؤمنون

## مكية، وهي مئة وثمان عشرة آية

**تسميتها وفضلها:**

سميت سورة «المؤمنون» لافتتاحها بقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ ثم ذكر أوصاف المؤمنين السبعة وجزاءهم العظيم في الآخرة وهو ميراث الفردوس.

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يُسمع عند وجهه كَدِويّ النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضَ عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أُنزل علي عشر آيات من أقامهن[1] دخل الجنة ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر».

وروى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ

(١) من أقامهن: أي من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن؛ كما تقول: فلان يقوم بعمله.

القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ - حتى انتهت إلى - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

**مناسبة السورة لما قبلها:**

تظهر صلة هذه السورة بسورة الحج من نواحٍ هي:

١ - ختمت سورة الحج بجملة من الأوامر الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهو مجمل فصّل في فاتحة هذه السورة، فذكر تعالى خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الآيات العشر.

٢ - ذكر في أول سورة الحج قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآية لإثبات البعث والنشور، ثم زاد هنا بياناً ضافياً في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ الآيات. فما أُجمل أو أوجز هناك، فصل وأُطنب هنا.

٣ - في كل من السورتين أدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

٤ - في السورتين أيضاً ذكرت قصص بعض الأنبياء المتقدمين للعبرة والعظة، في كل زمن وعصر ولكل فرد وجيل.

**ما اشتملت عليه السورة:**

تضمنت السورة الكلام على أصول الدين من وجود الخالق وتوحيده وإثبات الرسالة والبعث.

وابتدأت بالإشادة بخصال المؤمنين المصدقين بالله ورسوله التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في الجنان.

ثم أبانت الأدلة على وجود الله تعالى والقدرة الإلهية والوحدانية من خلق الإنسان مروراً بأطواره المتعددة، وخلق السماوات البديعة، وإنزال الماء منها لإنبات الجنات أو البساتين التي تزهو بالنخيل والأعناب، والزيتون والرمان، والفواكه الكثيرة، وإيجاد الأنعام ذات المنافع العديدة للإنسان، وتسخير السفن لحمل الركاب والبضائع.

ثم أوردت قصص بعض الأنبياء والمرسلين كنوح وهود وموسى وهارون وعيسى وأمه مريم، لتكون نماذج للعبرة والعظة عبر الأجيال، وتسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين من قريش، مع توبيخهم ووعيدهم على استكبارهم عن الحق، ووصفهم النبي ﷺ بالجنون وغيره، وعدم إيمانهم برسالته، وإخبارهم بما يلقونه من العذاب والنكال يوم القيامة، وإقناعهم بالأدلة والبراهين على حدوث البعث والنشور.

وفي خلال ذلك أوضحت بعض الآيات يسر التكليف وسماحته وعدم المطالبة إلا بما فيه الوسع والقدرة، والتذكير بما أنعم الله به على الإنسان من نعم الحواس والمشاعر، والإنكار الشديد على نسبة الولد والشريك إلى الله تعالى.

ثم طمأنت الآيات النبي ﷺ عن نجاته من القوم الظالمين، ووضعت له أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، وعرفته طريق الاعتصام بالله من همزات الشياطين.

وعرضت السورة في خاتمتها لموقف الحساب الرهيب وأهواله وشدائده، وما فيه من معايير النجاة والخسران، من ثقل الموازين وخفتها، وقسمة الناس إلى فريقين: سعداء وأشقياء، وعدم إفادة الأنساب في شيء، وتمني الكفار العودة لدار الدنيا ليعملوا صالحاً، وتذكيرهم بسخريتهم وضحكهم من المؤمنين، وسؤالهم عن مدة لبثهم في الدنيا، وتوبيخهم على إنكار البعث،

وإعلان تفرد الإله الملك القاهر بالحساب ومحاورته أهل النار، وبيان خسارة من عبد مع الله إلهاً آخر، ونجاة أهل الإيمان والعمل الصالح، وإفاضة رحمة الله عليهم ومغفرته لهم.

## خصال المؤمنين

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

**القراءات:**

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾:

وقرأ ابن كثير (لأمانتهم).

﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (صلاتهم).

**الإعراب:**

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ انتظمت الجملة أقسام الكلم الثلاثة التي هي الاسم والفعل والحرف، فإن ﴿قَدْ﴾ حرف، و﴿أَفْلَحَ﴾ فعل، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اسم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ جملة معطوفة على ما قبلها، أي يؤدون الزكاة. وقيل: أي الذين لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ وتفسير القرآن بعضه ببعض أولى، لكن الظاهر الأول لأن الغالب في القرآن اقتران الزكاة بالصلاة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ إنما جمع (أمانات) جمع (أمانة) مع أنها مصدر، والمصادر لا تجمع؛ لأنها تدل على الجنس؛ لأنها مختلفة الأنواع، وحينئذ يجوز تثنيتها وجمعها، والأمانة هنا مختلفة، لاشتمالها على سائر العبادات وغيرها من المأمورات.

**البلاغة:**

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿قَدْ﴾: لإفادة التحقيق، والإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ الآيات، تفصيل بعد إجمال.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَٰشِعُونَ﴾ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ﴿فَٰعِلُونَ﴾ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ سجع لطيف غير متكلف.

﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ استعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم.

**المفردات اللغوية:**

﴿قَدْ﴾ للتحقيق وهي تثبت المتوقع، كما أن (لما) تنفيه، وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقرّبه من الحال ﴿أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فازوا بأمانيهم، و﴿أَفْلَحَ﴾: فاز وظفر بالمراد، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: جمع مؤمن: وهو المصدّق بالله وبما أنزل على رسوله من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء. ﴿خَٰشِعُونَ﴾

متواضعون خاضعون متذللون لله خائفون منه ﴿ٱللَّغْوِ﴾ مالا خير فيه من الكلام، ومالا يعني من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أقام الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً، مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام بالطاعات البدنية والمالية وتجنب المحرّمات وما يخل بالمروءة. والمراد بالزكاة هنا المعنى وهو التزكية، فجعل المزكين فاعلين له، لأن التزكية مصدر، ويقال لمحدثه فاعل، فهو فاعل الحدث، كالضارب فاعل الضرب، والقاتل فاعل القتل. ويجوز أن يراد بالزكاة العين، أي القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، بتقدير مضاف محذوف وهو الأداء.

﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي يحفظون فروجهم عن الحرام، والفرج: سوأة الرجل والمرأة وحفظه: التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي من زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي السراري حينما كان الرق شائعاً، أما اليوم فقد انتهى من العالم ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهن، والضمير يعود لحافظون أو لمن دل عليه الاستثناء.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي طلب غير ذلك من الزوجات والسراري كالاستمناء باليد (العادة السرية) في إتيانهن ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون إلى مالا يحل لهم، أو المتناهون في العدوان وتجاوز الحدود الشرعية.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ جمع أمانة: وهي كل ما يؤتمن الإنسان عليه من الله كالتكاليف الشرعية، أو من الناس كودائع الأموال ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ العهد: كل ما التزمه الإنسان نحو ربه وأمره به كالصلاة والنذر وغيرهما، ونحو الناس من قول وفعل كالعقود والوعود والعطاء. وكلمة ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ مفرد مضاف فيعم ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها، والرعي: الحفظ، والراعي: الذي يحفظ الشيء ويصلحه.

﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾ جمع صلاة، وهي مثل ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ تشمل المفرد والجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدونها في أوقاتها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ لا غيرهم، أي هم الأحقّاء بأن يسموا ورّاثاً دون غيرهم ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتقييد الوراثة بعد إطلاقها تفخيم لها وتأكيد، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم. و﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: أعلى الجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ماكثون أبداً. وأنث الضمير لأنه اسم للجنة، أو لطبقتها العليا. وفيه إشارة إلى المعاد، ويناسبه ذكر المبدأ بعده.

**سبب النزول:**

**نزول الآية (٢):**

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾: روي أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده، وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلب هذا، لخشعت جوارحه»[1]. أخرج الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطاطأ رأسه. وأخرج ابن مردويه بلفظ: كان يلتفت في الصلاة. وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن سيرين مرسلاً بلفظ: كان يقلب بصره، فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً: كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فنزلت.

**التفسير والبيان:**

يبشر الله تعالى بالفلاح والفوز المؤمنين المتصفين بسبع صفات، ويحكم لهم بذلك، فيقول:

(١) تفسير البيضاوي: ص ٤٥١

١ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي قد فازوا وسعدوا، لاتصافهم بصفة الإيمان أي التصديق بالله ورسله واليوم الآخر.

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ أي خائفون ساكنون، والخشوع: خشوع القلب، وهو الخضوع والتذلل مع الخوف وسكون الجوارح. قال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح.

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون له راحة وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس: «حُبِّب إلي الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وروى الإمام أحمد أيضاً عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة».

والخشوع واجب ضروري لتعقل معاني الصلاة، ومناجاة الرب تعالى، وتذكر الله والخوف من وعيده، وتدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤] وحينئذ يتخلص غالباً من وساوس الشيطان ومحاولة شغل الفكر وصرف المصلي عن صلاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٥] . لكن جمهور العلماء لم يشترطوا الخشوع في الصلاة للخروج من عهدة التكليف، وإنما هو شرط لتحصيل الثواب عند الله تعالى.

٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ أي الذين يتركون رأساً كل ما كان حراماً أو مكروهاً، أو مباحاً لا خير فيه، ولا يعني الإنسان ولا حاجة له فيه. وذلك يشمل الكذب والهزل والسب وجميع المعاصي ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢] .

ومع الأسف الشديد استبد اللهو في عصرنا في أفعال وأقوال كثير من الناس برؤية التلفاز، وقراءة المجلات غير النافعة واللعب بالأوراق، واللهو، والعبث، وضياع الوقت فيما لا يجدي، مع أن الوقت من ذهب، لذا وصفت أمتنا بالتخلف لإهدار قيمة الوقت بين أفراد شعبها.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ قال ابن كثير: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/١٤١] . وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ، ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٤١/٦-٧] على أحد القولين في تفسيرهما. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل: هو الذي يفعل هذا، والله أعلم.

وقال الرازي: وقول الأكثرين إنه الحق الواجب في الأموال خاصة، وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى[1].

٥ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنىً وفعل قوم لوط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم بالعقد، أو بملك اليمين، أي ما ملكت أيمانهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٣٨، وما بعدها، تفسير الرازي: ٢٣/٨٠

من السراري - في الماضي حيث كان الرق قائماً - فمن اقتصر على الحلال، فلا لوم عليه ولا حرج.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ أي فمن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء، فأولئك هم المتناهون في العدوان، المتجاوزون حدود الله. وهذا يدل على تحريم المتعة والاستمناء باليد.

٦ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي والذين يحفظون حرمة الأمانة وقدسية العهد، فإذا ائتُمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، فأداء الأمانة والوفاء بالعهد صفة أهل الإيمان، أما الخيانة والغدر وخلف الوعد وعدم الوفاء بمقتضى العقد بيعاً أو إجارة أو شركة أو غيرها، فهي صفة أهل النفاق الذين قال فيهم رسول الله ﷺ - فيما يرويه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧].

والأمانة والعهد يشملان جميع ما ائتمن الإنسان عليه من ربه أو من الناس، كالتكاليف الشرعية، والودائع، وتنفيذ العقود.

٧ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي والذين يواظبون على الصلاة ويؤدونها في أوقاتها، مع استكمال أركانها وشروطها. جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وابن ماجه

والحاكم والبيهقي عن ثوبان: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الصلاة إلا مؤمن». أي الزموا الاستقامة بالمحافظة على إيفاء الحقوق ورعاية الحدود، والرضى بالقضاء، ولن تُحْصُوا ثواب الاستقامة.

ثم رتب الله تعالى الجزاء الحسن على هذه الأفعال، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا﴾ أي أولئك البعيدون في درجات الكمال المتصفون بهذه الصفات الحميدة هم المستحقون النزول في جنات الفردوس، الماكثون فيها أبداً على الدوام، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وقيل: الفردوس هي الجنة، وهي رومية أو فارسية عُرِّبت.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦٣] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٢]. وهذا قانون الله من حيث العدل أن الجنة جزاء العمل الحسن في الدنيا، ومجموع الأخذ بهذه الصفات السبع محقق لهذا الفوز في عالم الآخرة. ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والصوم والحج، فدخل معهن. والآية عامة في الرجال والنساء.

**فقه الحياة أو الأحكام:**

أرشدتنا الآيات إلى وجوب الاتصاف بالصفات السبع التالية، والقيام بالأفعال الآتية المستوجبة الخلود في الفردوس الأعلى من الجنان وهي:

أ - الإيمان: وهو التصديق بالله ورسله واليوم الآخر.

ب - الخشوع في الصلاة: وهو الخضوع والتذلل لله والخوف من الله تعالى،

ومحله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، إذ هو مَلِكُها. روى الترمذي عن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الرحمة تواجهه، فلا يحركن الحصى». فالسكون دليل الاطمئنان، واستيقاظ الذهن، والاتجاه نحو الله تعالى، وبه يحصل جوهر الصلاة، وتتحقق غايتها المنشودة الصحيحة.

وهو من فرائض الصلاة على الصحيح، وأساس قبولها، والظفر بثواب الله تعالى.

٣ً - الإعراض عن اللغو: أي الباطل، وهو الشرك والمعاصي كلها، وكل مالا حاجة فيه ومالا يعني الإنسان، وإن كان مباحاً.

٤ً - أداء الزكاة المالية المفروضة، وتزكية النفس من الدنس والمعصية، وتطهيرها من أمراض القلب كالحقد والحسد والكراهية والبغضاء ونحوها.

٥ً - حفظ الفرج، والتعفف من الحرام كالزنى وفعل قوم لوط، والإعراض عن الشهوات. وذلك يدل على تحريم المتعة (الزواج المؤقت بمدة زمنية محدودة، قصيرة أو طويلة) لأن المرأة المستمتع بها ليست زوجة بالفعل، بدليل أنهما لا يتوارثان بالإجماع، فلا تحل للرجل، لكن يدرأ الحد للشبهة.

ويدل أيضاً على تحريم الاستمناء، ويستأنس له بحديث رواه الإمام الحسن ابن عرفة في جزئه المشهور عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[1].

(١) حديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف لجهالته.

وتحريم الاستمناء هو مذهب جماهير العلماء، لظاهر الآية التي حصرت إباحة الاستمتاع بالنساء بالزواج وملك اليمين. ونقل عن الإمام أحمد جوازه للضرورة أو الحاجة الملحة، أي لمرة واحدة مثلاً دون تكرار، إذا استبدت به الشهوة، وطغت عليه، بشروط ثلاثة: أن يخاف الزنى، وألا يملك مهر امرأة حرة، وأن يكون بيده، لا بيد امرأة أجنبية، ولا بيد ذكر مثله.

ومن تجاوز الحلال ووقع في الحرام كالزنى وفعل قوم لوط، فهو معتد متجاوز حدود الله، ويجب عليه الحد لعدوانه، إلا أن يكون جاهلاً التحريم كمن أسلم حديثاً، أو متأولاً، كما قال القرطبي.

٦ - أداء الأمانة ورعاية العهد والعقد: ومعنى الأمانة أو العهد يجمع كل ما يُحَمَّله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يشمل معاشرة الناس والوعود وغير ذلك. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما فيه قول أو فعل أو معتقد.

٧ - المحافظة على الصلاة: بإقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها.

فمن عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهم الوارثون الذين يرثون فراديس الجنان، وينزلون فيها منزلاً كريماً، ويخلدون فيها على الدوام والبقاء. ويدخل في الأمانات جميع الواجبات من الأفعال والتروك، فصارت الآيات شاملة العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة.

# من أدلة وجود اللَّه وقدرته

## - ١ -

## خلق الإنسان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

**القراءات:**

﴿عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ﴾:

وقرأ ابن عامر (عَظْماً، العَظْم).

﴿أَنشَأْنَـٰهُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أنشاناه).

**الإعراب:**

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ النطفة وعلقة: مفعولا ﴿خَلَقْنَا﴾ المتعدي هنا إلى مفعولين؛ لأنه بمعنى: صيرنا، ولو كان بمعنى: أحدث لتعدى إلى مفعول واحد.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ أحسن إما بدل من ﴿ٱللَّهُ﴾ ولا يجوز أن يكون وصفاً؛ لأن إضافته إلى ما بعده في نية الانفصال لا الاتصال؛ لأنه في تقدير: أحسن من الخالقين، كما تقول: زيد أفضل القوم، أي منهم، فلا

يستفيد المضاف من المضاف إليه تعريفاً، فوجب أن يكون بدلاً، لا وصفاً. وإما خبر مبتدأ محذوف، أي هو أحسن الخالقين، وقوّى هذا التقدير أنه موضع مدح وثناء.

**البلاغة:**

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ نزلوا منزلة المنكرين، فهم لا ينكرون الموت، ولكن غفلتهم عنه، وفقدهم العمل الصالح من علامات الإنكار، وأكد الخبر بمؤكدين (إن واللام).

﴿طِينٍ﴾ ﴿مَّكِينٍ﴾ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ سجع سائغ مقبول لا تكلف فيه.

**المفردات اللغوية:**

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصل الإنسان وهو آدم أو الجنس فإنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفاً ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ خلاصة سلت من بين التراب، من سللت الشيء من الشيء، أي استخرجته منه ﴿مِّن طِينٍ﴾ من: بيانية، أو متعلق بمحذوف لأنه صفة لسلالة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي جعلنا نسله - نسل آدم، فحذف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ منياً، أي بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقر حصين أو متمكن، يعني الرحم .﴿عَلَقَةً﴾ هي الدم الجامد ﴿مُضْغَةً﴾ أي صيرناها مضغة وهي قطعة لحم، قدر ما يمضغ. وخلقنا في المواضع الثلاثة بمعنى: صيرنا ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بنفخ الروح فيه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالى شأنه في قدرته وحكمته وتقدس ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المقدرين تقديراً، فحذف مميز ﴿أَحْسَنُ﴾ وهو خلقاً، لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه.

﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة ﴿تُبْعَثُونَ﴾ للحساب والجزاء.

**سبب النزول:**

**نزول الآية (١٢):**

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال: وافقت ربي في أربع، نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية، فقلت أنا: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

**المناسبة:**

بعد أن أمر الله تعالى بالعبادات، أورد ما يدل على معرفة الإله الخالق المعبود، وذكر أربعة أنواع من دلائل وجوده وقدرته تعالى، واتصافه بصفات الجلال والوحدانية. وتلك الأدلة: هي خلق الإنسان، وخلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق الحيوانات لمنافع.

**التفسير والبيان:**

يخبر الله تعالى عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، ويبين تقلبه في أدوار تسعة للخلقة وهي:

أ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أي لقد خلقنا أي أوجدنا الإنسان، وقلبناه في أدوار الخلقة وأطوار الفطرة، والمراد به جنس الإنسان وأصله من خلاصة سلت من طين لا كدر فيه، أو أول أفراده وهو آدم عليه السلام. وهذا دليل كافٍ على قدرة الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل صفات الكمال.

والراجح أن المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام؛ لأنه استل من الطين، وخلق منه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٠].

٢ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ أي ثم جعلنا نسله أو جنس الإنسان نطفة من مني في أصلاب الذكور، ثم قذفت إلى أرحام الإناث، فصار في حرز مستقر متمكن حصين، ابتداء من الحمل إلى الولادة. وذلك كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٧-٨] أي من ماء ضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٢٣] .

٣ - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي ثم حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفة العلقة: وهي الدم الجامد. أو صيرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل (وهو ظهره) وترائب المرأة (وهي عظام صدرها مابين الترقوة إلى السُّرّة) صيرناها علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة.

٤ - ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي ثم صيرنا الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم، بمقدار ما يمضغ، وهي قطعة كبضعة لحم، لا شكل فيها ولا تخطيط. وسمي التحويل خلقاً؛ لأنه سبحانه يفني بعض الصفات، ويخلق صفات أخرى، وكأنه تعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

٥ - ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي صيرناها عظاماً يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

٦ - ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي غطينا العظام بما يستره ويشده ويقويه وهو اللحم؛ لأن اللحم يستر العظم، فجعل كالكسوة لها.

٧ - ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول، بأن نفخنا فيه الروح، فتحرك، وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي تعالى شأنه في قدرته وحكمته، وتنزه وتقدس الله أحسن المقدِّرين المصورين.

روى ابن أبي حاتم والطيالسي عن أنس قال: قال عمر: «وافقت ربي في أربع: قلت: يارسول الله، لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

وقلت: يارسول الله، لو اتخذتَ على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهُنَّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٦٦/٥].

ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية فقلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

٨ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] أي ثم إنكم بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت.

٩ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي ثم تبعثون من قبوركم للنشأة الآخرة للحساب والجزاء ثواباً وعقاباً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٠] يعني يوم المعاد.

وفي هاتين الآيتين جعل الله سبحانه الإماتة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة الحياة بعد الإفناء والإعدام دليلين على قدرته بعد الإنشاء والاختراع.

---

(١) وقرئ «لمائتون» والفرق بين الميت والمائت: أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث، تقول: زيد ميت الآن، ومائت غداً.

**فقه الحياة أو الأحكام:**

دلت الآيات على خلق الإنسان، وخلْقُه ومروره في المراحل التسع المذكورة دليل واضح على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته العظمى.

فقد بدأ الله تعالى خلق آدم عليه السلام من طين أو تراب، ثم جعل ابن آدم مخلوقاً من نطفة (مني) يلتقي مع مني المرأة، فيبدأ تخلق الجنين، ثم تتحول النطفة إلى علقة (دم متخثر) ثم تصبح مضغة (قطعة لحم) ثم تصير عظاماً، ثم تكسى العظام باللحم الذي تظهر فيه ملامح الإنسان، ثم يصير خلقاً جديداً مبايناً للخلق الأول بنفخ الروح الحركية فيه بعد أن كان جماداً.

فتبارك وتعالى الله أحسن الخالقين وأتقن الصانعين، لهذا الإبداع والإنشاء العظيم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٧] .

وبعد هذه المراحل السبع، وولادة الإنسان، وتمتعه بالحياة المقدرة له، أي بعد الخلق والحياة تحدث نهاية الإنسان بالموت، ثم يأتي البعث بعد الموت، وكلٌ من الخلْق الأول (النشأة الأولى) ثم الإماتة (إعدام الحياة) ثم البعث (إعادة ما أفني وأعدم) دليل قاطع على قدرة الله تعالى.

والآيات صريحة في أن الله وحده هو الخالق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الباعث، والله هو الحق، ووعده بالبعث حق، والجنة حق، والنار حق. وذلك كله لإثبات البعث الذي ينكره المشركون والملحدون الماديون الذين يرون أن الدنيا هي نهاية المطاف، وألا حياة أخرى بعدئذ، وإنكارهم الحياة الآخرة وإنكار وجود الله أو وحدانيته هو مذهب المادية، وعقيدة الجاهلية، وأسّ الكفر وعماده.

أما أهل الإيمان فهم الذين يشكرون ربهم الخالق الذي أنعم عليهم بنعمة الإيجاد والإحياء والرزق، وهم الذين يبادرون إلى أداء التكاليف التي كلف

الله بها عباده بعد أن أصبحوا قادرين على تحمل التكليف، ثم لابد من مجيء يوم القيامة والبعث بعد الموت لتسلم الجائزة الكبرى على العمل الصالح، ومجازاة المؤمنين بالجنة، وعقوبة الكافرين بالنار.

روى ابن أبي شيبة في مسنده أن ابن عباس استنبط شيئاً من هذه الآية، فقال لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم؛ فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السماوات سبعاً، والأرضِين سبعاً، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأُراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر رضي الله عنه: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه.

أراد ابن عباس بقوله: «خلق ابن آدم من سبع» مراحل خلق الإنسان المفهومة من هذه الآية، وبقوله: «وجعل رزقه في سبع» قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ السبع منها لابن آدم، والأب: العشب للأنعام، والقضب: البقول، وقيل هو للأنعام.